محاضرة نظريات الاتصال

م.د حسين مراد كاظم

المرحلة الثانية

النظريات الاجتماعية والنفسية المفسرة للاتصال.

مفهوم النظرية العلمية في دراسات الاتصال: يتجلى مفهوم النظرية بوضوح ودقة في العلوم التطبيقية البحتة، ويشوبه نوع من الغموض والتداخل المعرفي في العلوم الانسانية عموما، وعلم الإعلام والاتصال بوجه خاص، ذلك أن علم الإعلام والاتصال ينتمي إلى مجموعة العلوم الإنسانية، فتتداخل أطره النظرية مع علم النفس والاجتماع على وجه التحديد. بل أن هناك من باحثي الإعلام والاتصال من لا يزال يؤيد وجهة النظر التي تقول أن الإعلام والاتصال لم ينتج نظرية رئيسة قابلة للتطور في المستقبل. ويمكن الإشارة إلى مفهوم النظرية بشكل عام أنها مجموعة من البيانات والمعلومات المترابطة على مستوى عال من التجديد والتي يمكن أن تولد الاقتراضات التي يتم اختبارها بالمقاييس العلمية وعلى أساسها يمكن أن توضع التنبؤات على السلوك والنظرية العلمية توضح علاقة الأثر بالسبب وذلك بهدف التفسير أو التنبؤ بظواهر معينة. وتعرف النظرية أيضا بأنها وصف لتجربة معينة بناء على ملاحظة منظمة. كما تعرف بأنها المعارف التي تكون في مجموعها جملة من الحقائق.

وتعرف النظرية العلمية بأنها جسم مؤسس على قاعدة عريضة من قوانين فرضيات وحقائق علمية، لتفسير ظاهرة طبيعية أو اجتماعية ما، بأدلة مادية ملموسة ومقنعة تم التأكد من صحتها بالتجربة أو الملاحظة لمرات عديدة. كذلك تشير النظرية إلى المفاهيم التي يتوصل إليها الباحث بناءً على ملاحظته لتجربة أو مجموعة تجارب، أو حدث أو مجموعة أحداث.

ويشترط في النظرية العلمية توفر الشروط الأربعة الآتية:

(أ) الخضوع بنجاح لاختبارات علمية دقيقة وامرات عديدة.

(ب) القدرة على التنبؤ والتفسير.

(ج) الاتساق أي أن تتحقق شروط الاتساق مع إحدى النظريات السابقة، على الرغم من أن النظرية الجديدة ستظهر في الغالب عدم دقة النظرية القديمة.

(د) شحة التفاصيل وشحة التأويل بمعنى أن تكون النظرية بسيطة وذات مكونات واضحة محددة الألفاظ ودقيقة المعاني بحيث يصعب تأويلها أو إساءة فهمها.

ومن السمات التي تميز النظرية العلمية:

١ ـ قابليتها للخطأ والصواب، فلا تكون النظرية العلمية ثابتة ولا شك فيها، بل إن العديد من النظريات يتم إخضاعها للتجربة وإثبات خطأها

2- تكون النظرية العلمية في العموم مؤقتة ولا تصف الواقع بشكل دقيق كلياً، إذ أنها قابلة للدحض أو التكذيب أو التطوير مع مرور الزمن

3. يمكن إثبات صحة أو خطأ اية نظرية أو حقيقة علمية بعد عدد من السنين فلا يوجد ما يسمى بالحقيقة المطلقة أو الأزلية في العلم.

4 ـ تفسر السلوك أو الظواهر عن طريق الأدلة العلمية التي نحصل عليها من الحقائق.

أما فيما يتعلق بالنظريات الاتصالية، فإنه لا توجد نظرية اتصالية خالصة متفق عليها وعلى كيفية عملها أو تأثيرها على الجمهور، وإنما يوجد عدد من النظريات التي تقدم تصورات عن كيفية عمل الاتصال وتأثيره، ذلك أن النظرية تجسد بشكل فاعل تطبيقات وسائل الاتصال

والاعلام في المجتمع، وتقدم تصورا عن المتغيرات الاجتماعية المحتملة وتأثيرات الاتصال فيها. وعلى الرغم من اختلاف تعريفات الباحثين في مجال الاتصال والاعلام، المفهوم النظرية فإنها تجمع على أن الهدف منها هو الوصول الى استنتاجات علمية تصف علاقات وظيفية بين متغيرات يتم قياسها أو استقراؤها، ويسبق ذلك وضع فروض علمية لمعرفة العلاقة بين تلك المتغيرات البحثية، بهدف الوصف أو التنبؤ أو التحكم في الظاهرة المدروسة. ومن هنا فإن النظرية الاتصالية تعني تلك البحوث والدراسات التي تتعلق بالاتصال سواء ما يتعلق منها بالمرسل أو المستقبل أو الوسيلة أو الجمهور أو كلاهما معا. كما ويشير مفهوم نظريات الاعلام إلى خلاصة نتائج الباحثين والدارسين للاتصال بهدف تفسير ظاهرة الاتصال والاعلام ومحاولة التحكم فيها والتنبؤ بتطبيقاتها وأثرها في المجتمع، فهي توصيف للنظم الاعلامية في دول العالم على نحو ما جاء في كتاب نظريات الصحافة الأربع لبيترسون وشرام

علاقة نظريات الإعلام بفلسفة الإعلام

هناك علاقات بين نظريات الإعلام وفلسفة الإعلام، ففلسفة الإعلام هي بحث العلاقة الجدلية بين الإعلام وتطبيقاته في المجتمع، أي تحليل التفاعل بين أسس الإعلام كعلم وبين ممارساته الفعلية في الواقع الاجتماعي. ويرى المنظرون أن نظريات الإعلام جزء من فلسفة الإعلام، لأن فلسفة الإعلام أعم واشمل من النظريات، وكثيرا ما شاع استخدام نظريات الإعلام باعتبارها فلسفة الإعلام أو مذاهب الإعلام، ولكن في واقع الأمر أن استخدام تعبير نظريات الإعلام كان في مجمله انعكاسا للحديث عن أيديولوجيات ومعتقدات اجتماعية واقتصادية أو الحديث عن أصول ومنابع العملية الإعلامية (مرسل، ومستقبل، ووسيلة .. الخ). وترتبط النظريات بالسياسات الإعلامية في المجتمع من حيث مدى التحكم في الوسيلة من الناحية السياسية، وفرض الرقابة عليه وعلى المضمون الذي ينشر أو يذاع من خلالها، فهل تسيطر عليها الحكومة ام لها مطلق الحرية لم تحدد عملها بعض القوانين؟. وفي تفسير علاقة الإعلام بالسلطة في المجتمع، عبر التاريخ، ظهرت مجموعة من النظريات التي تفسر تطور الإعلام ودوره في المجتمع وعلاقته بالسلطة الحاكمة أو فلسفة الإعلام بشكل عام... ومن أبرز هذه النظريات

١ـ نظرية السلطة:

ظهرت هذه النظرية في إنجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتستند إلى فلسفة السلطة المطلقة للحاكم، أو لحكومته، أو لكلاهما معا.

وترى هذه النظرية أن الشعب غير جدير على أن يتحمل المسؤولية أو السلطة فهي ملك للحاكم أو السلطة التي يشكلها، وغرضها الرئيس هو حماية وتوطيد سياسة الحكومة القابضة على زمام الحكم، ويتم احتكار تصاريح وسائل الإعلام، وعلى الرغم من السماح للقطاع الخاص على اصدار المطبوعات جرائد مجلات .... الا انه ينبغي أن تظل وسائل الاعلام خاضعة للسلطة الحاكمة، وتشرف الحكومة على الصحف وتفرض الرقابة عليها وعلى ما ينشر، كما ويحظر عليها نقد السلطة الحاكمة والجهاز السياسي والموظفين الرسميين. وملكية هذه الصحف او الوسائل الاعلامية قد تكون خاصة أو عامة، وتكون ادوات لترويج سياسات الحكومة ودعمها. كما يتم النظر الى الصفوة السياسية التي تحكم الدولة هي وحدها التي تملك ان توجه العامة، التي لا تعد مؤهلة لاتخاذ القرارات السياسية. كما أن الشخص الذي يعمل في الصحافة أو وسائل الاعلام الجماهيرية، يعمل بها كامتياز منحه إياه الزعيم الوطني ويتعين أن يكون ملتزما أمام الحكومة والزعامة الوطنية، وحرية وسائل الاعلام في ظل هذه النظرية تتحدد بالقدر الذي تسمح به القيادة الوطنية في أي وقت.

وقد عبر هتلر عن رؤيته للصحافة بقوله: "أنه ليس من عمل الصحافة أن تنشر على الناس اختلاف الآراء بين أعضاء الحكومة، لقد تخلصنا من مفهوم الحرية السياسية الذي يذهب إلى القول بأن لكل فرد الحق في أن يقول ما يشاء".

٢ـ نظرية الحرية:

تعود هذه النظرية بشكل أساس الى عصر النهضة الأوربية، وبالتحديد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إذ بلور عدد من المفكرين الأوربيين كثيرا من المبادئ التي مثلت تحديا للأفكار السلطوية التي سادت بداية عصر النهضة الأوربية. وكان من أبرزهم المفكر الانكليزي (جون ملتون) الذي يقول: "أن حرية النشر، باية واسطة، ومن قبل أي شخص مهما كان اتجاهه الفكري، حق من الحقوق الطبيعية لجميع البشر، ولا تستطيع أن نقلل من حرية النشر، بأي شكل وتحت أي عذر".

ومن أهداف نظرية الحرية تحقيق اكبر قدر من الربح المادي عن طريق الإعلان والترفيه والدعاية، لكن الهدف الأساس لوجودها هو مراقبة الحكومة وأنشطتها المختلفة من أجل الكشف. عن العيوب والفساد وغيرها من الأمور، كما انه لا يمكن بأب حال من الأحوال أن تمتلك الحكومة وسائل الإعلام.

وعلى وفق هذه النظرية فإن وسائل الإعلام تراقب أعمال أصحاب النفوذ والقوة في المجتمع وممارساتهم، وتدعو هذه النظرية الى فتح المجال لتداول المعلومات بين الناس بدون قيود عن طريق جمع ونشر هذه المعلومات واذاعتها عبر وسائل الاعلام كحق مشروع للجميع.

لقد تعرضت نظرية الحرية للكثير من الملاحظات والانتقادات، إذ اصبحت وسائل الاعلام تحت شعار الحرية تعرض الأخلاق العامة للخطر، وتقحم نفسها في حياة الأفراد الخاصة دون مبرر، وتبالغ في الأمور التافهة من أجل الاثارة وتسويق المادة الاعلامية الرخيصة، كما ان الاعلام أصبح يحقق اهداف الاشخاص الذين يملكون المال والنفوذ على حساب مصالح المجتمع وذلك من خلال توجيه الاعلام لأهداف سياسية او اقتصادية، وكذلك عن طريق تدخل المعلنين في السياسة التحريرية، وهنا يجب ادراك أن الحرية مطلوبة لكن شريطة أن تكون في اطار الذوق العام، ودون الانزلاق في حالة الفوضى.

٣. نظرية المسؤولية الاجتماعية:

بعد أن تعرضت نظرية الحرية للكثير من الملاحظات كان لا بد من ظهور نظرية جديدة في الساحة الاعلامية، فكان ظهور نظرية المسؤولية الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية وتقوم هذه النظرية على ممارسة العملية الاعلامية بحرية قائمة على المسؤولية الاجتماعية وظهرت القواعد والقوانين التي تجعل الرأي العام رقيبا على آداب المهنة وذلك بعد أن استخدمت وسائل الاعلام في الاثارة والخوض في أخبار الجنس والجريمة مما أدى إلى إساءة الحرية أو مفهوم الحرية

ويرى أصحاب هذه النظرية أن الحرية حق وواجب ومسؤولية في الوقت نفسه، ومن هذا يجب أن تقبل وسائل الاعلام القيام بالتزامات معينة تجاه المجتمع، ويمكنها القيام بهذه الالتزامات عن طريق وضع معايير مهنية للإعلام مثل الصدق والموضوعية والتوازن والدقة ونلاحظ ان هذه المعايير تفتقد إليها نظرية الحرية ويجب على وسائل الإعلام في إطار قبولها بهذه الالتزامات ان تتولى تنظيم امورها ذاتيا في إطار القانون والمؤسسات القائمة، ويجب أن تكون وسائل الاعلام تعددية تعكس تنوع الآراء والأفكار في المجتمع عن طريق إتاحة الفرصة للجميع من خلال النشر والعرض، كما أن للجمهور العام الحق في أن يتوقع من وسائل الاعلام مستويات أداء عالية، وان التدخل في شؤون وسائل الإعلام يمكن ان يكون مبرره تحقيق هذه المصلحة العامة، فضلا عن ذلك فان الاعلاميين في وسائل الاتصال يجب ان يكونوا مسؤولين أمام المجتمع فضلا عن مسؤولياتهم أمام مؤسساتهم الإعلامية.

وتهدف هذه النظرية الى رفع مستوى التصادم إلى مستوى النقاش الموضوعي البعيد عن الانفعال، كما تهدف هذه النظرية إلى الإعلام والترفيه والحصول على الربح إلى جانب الأهداف الاجتماعية الأخرى.

ويحظر على وسائل الإعلام نشر أو عرض ما يساعد على الجريمة أو العنف أو ماله تأثير سلبي على الاقليات في أي مجتمع، كما يحظر على وسائل الإعلام التدخل في حياة الأفراد الخاصة، وبإمكان القطاع العام والخاص ان يمتلكوا وسائل الإعلام.

٤. النظرية الشيوعية (الاشتراكية):

شهد الربع الأول من القرن العشرين ميلاد النظرية الشيوعية، والتي يعد كارل ماركس الاب الروحي لهذه النظرية والأفكار الرئيسة لهذه النظرية التي وضع أساسها ماركس وانجلوس ووضع قواعد تطبيقها لينين وستالين، يمكن ايجازها في أن الطبقة العاملة هي التي تمتلك سلطة في أي مجتمع اشتراكي، وحتى تحتفظ هذه الطبقة بالسلطة والقوة فإنها لابد ن تسيطر على وسائل الانتاج الفكري التي يشكل الإعلام الجزء الأكبر منها، لهذا يجب أن تخضع وسائل الاعلام السيطرة وكلاء لهذه الطبقة العاملة وهم في الاساس الحزب الشيوعي.

ان المجتمعات الاشتراكية تفترض انها طبقات لا طبقية، وبالتالي لا وجود الصراع الطبقات، لذلك لا ينبغي أن تنشأ وسائل الإعلام على أساس التعبير عن مصالح متعارضة حتى لا ينفذ الخلاف ويشكل خطورة على المجتمع.

وفي ظل هذه النظرية، فان وسائل الاعلام الجماهيرية تعد ادوات للحكومة، وجزء لا يتجزء من الدولة، والدولة تملك وتقوم بتشغيل هذه الوسائل، والحزب الشيوعي هو الذي يقوم بالتوجيه. وتفترض النظرية الشيوعية ان الجماهير اضعف واجهل من ان تحاط علما بكل ما تقوم به الحكومة، ووسائل الاعلام يجب ان تعمل دائما من اجل الافضل، والافضل عادة هو ما تقوله القيادة، ويتفق بطبيعة الحال مع خط النظرية الماركسية، ومن ثم فان كل ما تفعله وسائل الاعلام كي تدعم وتساهم في انجاح الشيوعية، بعد اخلاقيا، في حين ان كل ما تفعله لعرقلة الإنجاز الشيوعي، يعد غير اخلاقي. استخدمت النظرية الشيوعية مفردات كثيرة للدعاية أكثر منها للتنظير العلمي، كشعارات تكافؤ الفرص، والمساواة والعدالة الاجتماعية والتقدم الثقافي، ورفع الاستغلال عن طبقات الشعب العامل... وبانهيار الشيوعية وسقوط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٩ على يد الرئيس ميخائيل غورباتشوف تهاوت النظرية الشيوعية في الاعلام.

٥. النظرية التنموية:

نظرا لاختلاف ظروف الدول النامية والتي تختلف عن الدول المتقدمة من حيث الامكانيات المادية والاجتماعية، كان لا بد لهذه الدول من نموذج إعلامي يختلف عن النظريات التقليدية الأربع التي استعرضناها، ويناسب هذا النموذج أو النظرية الأوضاع القائمة في المجتمعات النامية فظهرت النظرية التنموية في عقد الثمانينيات. اما المبادئ والأفكار التي تضمنتها هذه النظرية فتعد مفيدة لدول العالم النامي لأنها تعارض التبعية وسياسة الهيمنة الخارجية.

كما ان هذه المبادئ تعمل على تأكيد الهوية الوطنية والسيادة القومية والخصوصية الثقافية للمجتمعات، وعلى الرغم من أن هذه النظرية لا تسمح إلا بقدر قليل من الديمقراطية حسب الظروف السائدة إلا انها في الوقت نفسه تفرض التعاون وتدعو الى تظافر الجهود بين مختلف القطاعات لتحقيق الأهداف التنموية، وتكتسب النظرية التنموية وجودها المستقل من نظريات الإعلام الأخرى من اعترافها وقبولها للتنمية الشاملة والتغيير الاجتماعي.

وتتلخص أفكار هذه النظرية في الآتي:

1. ان وسائل الإعلام يجب ان تقبل تنفيذ المهام التنموية بما يتفق مع السياسة الوطنية القائمة.
2. ان حرية وسائل الإعلام ينبغي ان تخضع للقيود التي تفرضها الأولويات التنموية والاحتياجات الاقتصادية للمجتمع.
3. يجب ان تعطي وسائل الإعلام أولوية للثقافة الوطنية واللغة الوطنية في محتوى ما تقدمه
4. ان وسائل الإعلام مدعوة في إعطاء أولوية فيما تقدمه من أفكار ومعلومات لتلك الدول النامية الأخرى القريبة جغرافيا وسياسيا وثقافيا.
5. ان الصحفيين والإعلاميين في وسائل الاتصال لهم الحرية في جمع وتوزيع المعلومات والأخبار.
6. - ان للدولة الحق في مراقبة وتنفيذ أنشطة وسائل الإعلام واستخدام الرقابة خدمة للأهداف التنموية.

٦ـ نظرية المشاركة الديمقراطية:

تعد هذه النظرية أحدث إضافة لنظريات الإعلام، وأضعفها تحديدا، فهي تفتقر حتى الآن الى وجود حقيقي في الممارسات المختلفة للمؤسسات الاعلامية.

برزت هذه النظرية من واقع الخبرة العملية كاتجاه إيجابي نحو ضرورة وجود أشكال جديدة في تنظيم وسائل الإعلام، فالنظرية نشأت كرد فعل مضاد للطابع التجاري والاحتكاري الوسائل الإعلام المملوكة ملكية خاصة، كما أن هذه النظرية قامت ردا على مركزية مؤسسات الإذاعة العامة التي قامت على معيار المسؤولية الاجتماعية وتنتشر بشكل خاص في الدول الرأسمالية.

ويعبر مصطلح "المشاركة الديمقراطية" عن معنى التحرر من الاحزاب السياسية القائمة والنظام البرلماني الديمقراطي في المجتمعات الغربية والذي أصبح مسيطرا على الساحة ومتجاهلا الاقليات والقوى الضعيفة في هذه المجتمعات.

إن النقطة الأساسية في نظرية المشاركة الديمقراطية، تكمن في احتياجات ومصالح وأمال جمهور متلق نشط وحق المواطن في استخدام وسائل الاتصال من أجل التفاعل والمشاركة على نطاق صغير في منطقته ومجتمعه، وترفض هذه النظرية المركزية أو سيطرة الحكومة على وسائل الإعلام ولكنها تشجع التعددية المحلية والتفاعل بين المرسل المستقبل، ووسائل الإعلام التي تقوم في ظل هذه الظروف تهتم أكثر بالحياة الاجتماعية وتخضع لسيطرة مباشرة من جمهورها، للمشاركة على أسس يحددها جمهورها بدلا من المسيطرين عليها.

شكراً لكم